

## الصورة و فخ الهوية

الدكتورة: نعيمة سعدية

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر - بسكرة

### Abstract :

The image is a part of identity so ,we choose some image to study the relation between them and the deep idea in society ,we try to analyse some pictures in order to discover its implicit discourse and its trap.

### الملخص:

الصورة خطاب بصري؛ أيقوني، في شكله الأول، وأيقوني - لغوي في شكل آخر، وتعد الصورة - كذلك - خطابا إعلاميا فكريا، لما يتضمن من رسائل ورؤى لأنماط العلاقات الإنسانية والاجتماعية، وجدناها خطابا ترويجيا، لمحاولاته الدائمة في الترويج للهوية بكل أنماطها: الفردية، و الوطنية، والقومية، والشعبية، وغيرها، الموروثة منها والمكتسبة، المتحققة فعليا والمرجوة. وعليه، تحاول هذه الدراسة بحث حيثيات الهوية في مجموعة من الصور المختارة، التي يقف المتلقي عندها حائرا، لما يجد فيها من أفخاخ، عملت على الترويج للهوي ونقيضها، فكانت الهوية بذلك هويات مختلفة.

## قبل البدء :

عندما تعصف زلازل الفخ بقلاع الهوية، عندما تنفجر المعاني غضبا وقهرا، فتطير الحقيقة كالشظايا. عندما يطلب العقل الأجوبة فترتد الأسئلة إلى بداياتها وعندما وعندما ... يجب على المثقف دق طبول الخطر والفرع، لتتزوج الفكرة والعبرة، والرغبة والرغبة، والحلم والعمل، والحقيقة والمعرفة؛ إذ بات معروفا "أن المعرفة التي هي خلاصة الممارسات العقلية للإنسان تتشكل ضمن أطر ثقافية وحضارية محددة، وتدخل في علاقة حوار ومناقشة مع أطر ثقافية وحضارية أخرى"<sup>(1)</sup>.

لتحاول بذلك هذه الدراسة بحث حيثيات تحول الصورة إلى فخ يقع فيه فعل الترويج للهوية، لتصبح الهوية هويات، بل في الصورة الهوية ونقيضها.

## أولا. مفاهيم أساسية:

## 1- في مفهوم الهوية :

الهوية (IDENTITY) "عملية تمييز الفرد لنفسه وتحديد حالته الشخصية"<sup>(2)</sup>. وتساعد هذه العملية بما يميزها من سمات (اسم، جنسية، سن، حالة، مهنة... الخ) " الفرد في تسهيل معاملته المختلفة مع الجهات التي تطالب بإثبات شخصيته.. ومبدأ الهوية المقصود به أن الموجود هو ذاته أو هوما هو"<sup>(3)</sup>، فلا نخلط بين الأمور أو بين الشيء وما عداه وأن لا نضيف للشيء ما ليس له.

ولكن، مصطلح الهوية لا يكتفي بكل ما هو ذاتي فحسب، وإنما يتجاوز حدوده إلى صفات تخص الجماعة؛ لأنه منظومة متماسكة من السمات المشتركة بين أعضاء الجماعة تميزها وتجعلها تعتر بذاتها"<sup>(4)</sup>.؛ فهي بذلك: "مجموعة الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الذين ينتمون إليها، والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون عن سواهم من الأمم"<sup>(5)</sup>، كونها" تتضمن عددا كبيرا من السمات المعنوية والمادية المرتبطة في نظام واحد، وبقاء هذه الصفات أو زوالها، وإعطاء هذه الصفات أحكام قيمة موضوعية لصراع حضاري ولظواهر اجتماعية وثقافية ونفسية"<sup>(6)</sup>.

ليمكننا القول أخيرا أن "الهوية وحدة جماعة بشرية ما- كائنة ما كانت تناقضاتها أي تعددها- كما تتجلى في الخصوصيات، أي التجانس المتميز كما تصنعه الجغرافيا والتاريخ وكما تعبر عنه التطلعات الأصلية والأساسية لدى الإنسان"<sup>(7)</sup>.

إن تحديد مفهوم الهوية أمر صعب ومعقد صرح به الباحث في اللسانيات الاجتماعية نورمان فار كلوف (N.Faireclough): "تحديد الهوية أمر معقد، أحد تعقيداته هي أنه لا بد من التمييز بين الجوانب الشخصية والجوانب الاجتماعية للهوية: الهوية الشخصية والهوية الاجتماعية" (8).

من حيث إنها الانعكاس المنسجم المتجانس لقيم الجماعة: آرائها - مواقفها - سلوكياتها - توجهاتها الفكرية - والنفسية - فلسفتها في الحياة وكل ما يتصل بالوعي الجماعي، لنكون بذلك أمام:

1- هوية اجتماعية، يسعى الفرد من خلالها إلى تعزيز الانتماء بمجتمعه..

2- هوية وطنية: يعزز الفرد بها روابط الولاء للنظام والتراب.

3- هوية ثقافية: يعزز بها قوة الانتماء إلى ثقافة ما مكتسبة.

إن الحفاظ على الهوية الثقافية متصل بتوفير الشروط الفكرية العلمية الاقتصادية وحتى السياسية اللازمة.

الهوية ليست حالة من التملك، أو هبة تعطي، ولكنها صناعة وبناء يتشكل ويتطور كلما دعت الضرورة إلى ذلك، فهي المنجز البشري الذي يكتسب قوته وفاعليته من خلال نوعية الجهد الإنساني<sup>(9)</sup> في ضبط الخصائص الحضارية التي ابتدعتها المجموعة البشرية من لغة ودين وقيم ومهارات وفلسفة، لذلك اعتبر مفهوم الهوية موضوع جدل في أدبيات الفكر والثقافة.

ويتفاعل مصطلح الهوية مع مصطلح العولمة في علاقات جدل وتجاذب؛ فالعولمة تطارد الهوية وتلاحقها وتحاصرها وتجهز عليها، وفي دائرة هذه المطاردة تعاند الهوية أسباب الذوبان متشبثة بحق الوجود والديمومة.

ذلك "أن أكثر الاختراقات الغربية خطورة على الإطلاق هي محاولة طمس الهوية الثقافية للعرب والمسلمين وتحطيم منظومتهم الحضارية ومحو ذاكرتهم الجماعية،.. يلجأ الغرب في ذلك إلى تفكيك البنى الثقافية وتشويه القيم الدينية للعرب والمسلمين والنفاد إلى معاييرهم الأخلاقية وخصوصياتهم المحلية وفلسفاتهم الحياتية بالوهم والتشويه"<sup>(10)</sup> والسخرية والاستهزاء، والعجب أن من يساهم في ذلك عنصرًا مساعدًا ثلثة من المجموعة محسوبًا عليها. وإزاء كل هذا يمكن تحديد ثلاث هويات متمركزة في الذات:

- 1- الهوية الموروثة : ذات جذور اجتماعية فكرية دينية محددة (كينونة).
- 2- الهوية المكتسبة: اكتساب مهارات تحفظ بها مبدأ الاستمرارية (التفاعل).
- 3- الهوية المرجوة والموعودة: جملة التفاعلات لمظاهر الكينونة في الهوية، وهي غير مكتملة (حركة توليد الفوارق في الهوية). إن الهوية بذلك حالة وجودية ومعطى حضاري للفرد في الجماعة.

من أسباب زعزعة الهوية في أنفسنا امتلاك الفرد للثقافة السطحية والتبعية وأحيانا التقليد الأعمى للآخر حتى في جلد ذاته وهويته، زيادة على نمطية التعامل وخضوعه لمبدأ الازدواجية والعلومة.

وعليه، يجب أن لا نبحث عن فكر وتراث وهوية بديلة فذلك يؤدي إلى التباين، بل يجب بحث كيفية تطوير هويتنا، كونها حركة ونشاطا فعالان؛ تقوي مكامن القوة في معالم الهوية التي تميز الحضور الإنساني في هذا الوجود الكوني بكل خصوصياته الحضارية والثقافية والفكرية وغيرها.

## 2. في مفهوم الصورة:

الصورة رسالة إعلامية فكرية تمر على شبكة العلاقات الاجتماعية لتصل إلى ذهن الفرد وعواطفه وبنيته النفسية، في سبيل أن يكون مدركا مقتنعا بنمط العلاقات الاجتماعية، وواعيا بالمداخل والمخارج لهذه العلاقات، فاستجابة الناس لها مرتبطة بإدراكهم لنمط علاقاتهم الاجتماعية؛ لما لها من أهمية، كونها أبلغ لغة تعبيرية عن موضوعها لما لها من قوة تأثير، وقدرة على فرض نفسها على الجميع؛ بل إنها محاولة لدفع المرء على الإحساس بأمر أو الاعتقاد بفكرة أو تغيير سلوك يجب أن تعتمد ابتداء على توفير المعلومات الكافية حول ذلك.

ورائي الصورة الجزائرية لا يستطيع الانفلات من استحضار حقيقة وجود الفاعل والمؤثر والطاغي، فالفاعل جزائري، والمؤثر في الفاعل جزائري، والطاغي جزائري، يلوح بأيادي متنوعة عديدة للهوية الجزائرية، والتساؤل هل الصورة تقول كل شيء عن الهوية؟! أم أنها تقول ما لا تعرفه الهوية؟

هل الصورة تبوح بكل حقائق الهوية؟ أم أنها في كثير من الأحيان هي العامل الذي يصنع الهوية المضادة؟ ليتولد في ذهننا تساؤل جديد: ونحن نشاهد الصورة ترى عماذا نبحت: هل نبحت عن ذواتنا الضائعة أم أننا نبحت عن الهوية الحلم؟ ما الذي نحاول فهمه فيها الهوية المشوهة أم نبحت لنجمل ونصنع هوية الفردوس المفقود؟

كون الصورة رسالة تفاعلية تقر بأمور لا توجد في الهوية الحقيقية، بعد أن حوت معاني القول والدلالة الثبوتية، التي توهّلها للدخول إلى معبد "الهوية"؛ لتبتعد الصورة -بذلك- عن الهوية الجزائرية على يد فئة نخبوية منتمية إلى اللسان الفرنسي، لأنها مثقفة ثقافة غربية منبهرة بهذه الثقافة وبمدنيتها، وفي هذا تنكر لمعالم الهوية وإدخال للذات في صراع داخلي بين إضعاف للانتماء وتقوية الصلة بالآخر، بين إلغاء للهوية الأصل والترويج للهوية المصطنعة. ذلك أن الصورة بما تملك من سحر وجاذبية تنطق بكل شيء، الأمر وضده، الهوية واللا.هوية، الحقيقية اللا.حقيقة، أي المعنى واللا.معنى.

ثانيا. الصورة ومبدأ الترويج للهوية:

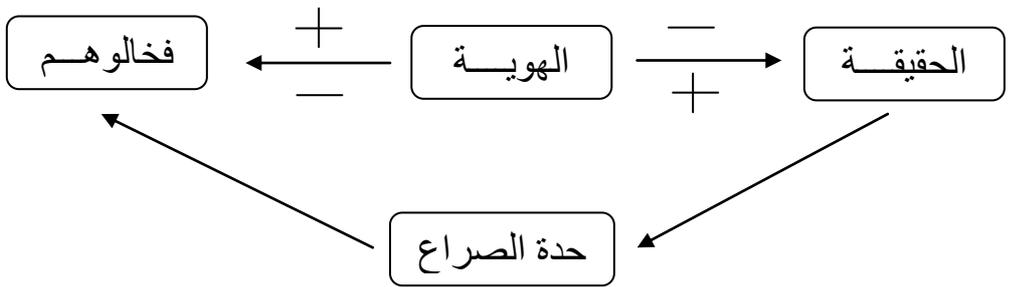
**I- الهوية والصورة الكاريكاتورية:** على مستوى هذا النوع من الصور يتزواج النسق اللساني مع النسق الإيقوني ليصنعا لنا الهوية المتخيلة والمتحققة في ذات الوقت. فما هي الفائدة التي يمكن أن يجنيها الفكر من متخيل الصورة ليساهم في إعادة بناء الهوية على أسس أمتن؟



فالجزائري من خلال الصور أعلاه شخص سلبي يرفض مواجهة الذات، مصاب بداء القلق والاندفاع، لا يحترم المشاعر غير عاطفي، وهي صور قليلة في هذا المجتمع الثوري الأبوي، لأن الجزائري شخص يحترم ذاته، وعروبته ومشاعر إخوته، له قوة نخوة بكل ما يحيط به، أما القلق فهو شعور طبيعي يعمد الجزائري خاص والعربي عامة إلى إظهاره لإنقاص من حدة توتره، أو لاسكات الطرف الآخر المحاور له؛ فهوى الاندفاع يعتبر طريقة في الفعل، ويشمل على « فائض جيهي» (يجمع بين إرادة الفعل والقدرة على الفعل (يمكن من توقع الإرادة والقدرة والمروء إلى الفعل)، وفي هذه الحالة تكون الذات منفصلة عن موضوعها (جهة : معرفة عدم الكينونة)، ومتشككة من النجاح في مهمتها(القدرة على عدم الكينونة) ومصرة، في الآن نفسه، على إدراك مبتغاها(إرادة الكينونة). وعلى الرغم من غياب إرادة الفعل بسبب المعوقات فإن العنيد لا يتخلى عن برنامجه ( مشروع الفعل المحتمل).

وعليه، فال"الأنا" كوعي بالذات الجماعية يقتضي عمومية الاسم على خلاف "الأنا" الفردية التي تتطلب تميزه واختلافه؛ ذلك أن "الأنا" الكبرى المشتركة هي أنا الشعور بالانتماء إلى مجتمع

له مميزاته، وهو ما يعبر عنه بمفهوم الهوية<sup>(11)</sup>؛ والأنا بوصفها وعيا بالذات الجماعية هو وعي بالآخر، ذلك أن الانتماء إلى جماعة محددة هو وعي بالاختلاف. إن الأمر يتعلق إذن بفائض جيهي هو الضامن لمواصلة الإنجاز. "وحضور هذا الفائض هو ما يفرض علينا صياغة هوية من خلال حدود" تنظيم جيهي للكينونة" لا من خلال حدود «أهلية في أفق الفعل. من خلال هذا المثال تتضح بعض المفارقات: تخرج «إرادة الفعل» عن «عدم القدرة على الفعل»، وتزداد قوة داخل تنظيم جيهي للكينونة. وهو ما يقتضي الافتراض بوجود تركيبين يهيم أحدهما التركيب الجيهي للفعل، ويخص ثانيهما التركيب الجيهي. وفي حال هوى «العناد» تكون «أهلية الفعل» مجرد صورة افتراضية «لأن العنيد يريد أن يكون، داخل ما سميناه التصاور الهوي للنعناد، «ذاك الذي يفعل»، وهو ما لا يعادل «يريد أن يفعل»<sup>(12)</sup>. إننا إذن أمام التفاعل الآتي:



«ينموقع الناس لا إراديا كفاعلين أولين بحسب الحال الذي يولدون عليه، ولا خيار لهم في ذلك ابتداء... قليلون في المجتمعات المعاصرة يبقون ضمن حدود هذه المواقع، لكن قدرتهم على تغييرها مرتبط بقدرتهم على التفاعل والتحول إلى فاعلين متعاونين قادرين على الفعل الجماعي وبلورة التعبير الاجتماعي»<sup>(13)</sup>.

إذ يتطلب تحقيق الهوية الاجتماعية القدرة على تولي الأدوار الاجتماعية، من حيث تشخيصها، أي توظيفها في شخصية المرء الخاصة (الهوية الشخصية) وتنفيذها بطريقة مميزة. يصبح المرء شخصية عندما يستطيع صياغة اهتماماته الأولية وتحديد أهدافه النهائية، ويتمكن من إقامة توازن بين أدواره الاجتماعية وترتيبها وفق الأولوية بالاستناد إلى تلك الاهتمامات

والأهداف، وهذه السيرة في حد ذاتها مقيدة اجتماعيا، أي أنّ الهوية الاجتماعية تقيد الهوية الشخصية، وهذا جزء من العلاقة المنطقية الجدلية بينهما<sup>(14)</sup>. وتمتلك الجزائر أنا يميزها، تعج بأشكال من الأنا<sup>(15)</sup> تتمثل في بقايا العصبية القديمة كالعروشية والقبلية واللغوية، وهي كثيرا ما تدخل في علاقة تنافس وتنافر، وهذه الأشكال من الأنا تحول دون دخول الجزائر عصر الحداثة في وجود ذات مواطنة منتمية تعي واجباتها وحقوقها، ولعل المرجع الديني هو المكون الهويتي الوحيد المشترك بين الجزائريين، وهذا ما يبرز في الصور التالية:



قصة الجزائري مع "البيدوه" ..



هي صور أخرى تظهر الجزائري في قوة الاندفاع والنشغال بأمر حياتية يحيها أي شخص ولكن هذه الصور أرادت منه شخصا لا.مبال مندفع يريد أن يفعل ولا يقدر، ومنه يجب القول « إذا كانت الدعوة إلى العقل تتيح الصمود في وجه عُصبوية ونزعة بيئية مغاليتين، فإنها تتيح أكثر ارتباط الذات الفاعلة -الحرية والذات الفاعلة- الجماعة المنصهرة، التي هي أيضا ذات

فاعلة واعية بانتمائها لوسط طبيعي<sup>16</sup>» فالعقلانية أساس لروح الحرية ضد إكراه الجماعة المنصهرة في العصبوية .

والدفاع المنطقي العقلاني ضد كل هذه الأمور يتحقق من الرأي الذي تفوق معرفته العلمية مستوى أكثر من المتوسط، يعمل على ترويح الهوية بكل زواياها الموروثة والمكتسبة والمرجوة. ولكن تتعمق هوة الهوية الجزائرية في الصور الآتية:



إن كلمة جزائري، في هذه الصور، هي تسمية مشتركة تدل على الأنا الجماعي، تقوم الأنا الجماعية "جزائري" على مرجعين: المرجع الديني المتمثل في الإسلام، والمرجع العصبي القبلي، الذي يعتبره ابن خلدون أساس التجمعات البشرية في مجتمعات المغرب العربي. ففي الصورة الأولى، نقول: إن الكون الهوي للفرد يعبر عن خصوصيته، ويجلي "أسطورته الشخصية" فيما يخص تثمان أهواء أو بخسها.؛ فالإرادة هي أساس مأساة الإنسان، لأنه عندما تكون الرغبة غير مشبعة ينتج عنها الضجر والازدراء، فيتولد الإحباط والعذاب. وهكذا فعادة

ما ترتبط الإرادة باللامعنى والعبث والتناحر. « إن هذه التغييرات في المواقع تقتضي منهاجا ممكنا لدراسة العلاقات بين النص والنص المحيط والسياق<sup>(17)</sup> ».

ولقد تبلورت إشكالية ثقافية نابغة من الممارسة اللغوية المزدوجة بعد الاستقلال، فقد تم استثناء المكون الأمازيغي للشخصية الجزائرية مما أدى إلى الحيلولة دون قدرة الأنا الرسمية على أن تجمع حولها الأنا الاجتماعية الجزائرية؛ الأمر الذي أوجد صراعا محتدما بين الذات الأمازيغية -كجزء جزائري- والأنا الجماعية ببعدها العربي.

فكانت صور الأعياد شكلا من أشكال استدعاء الآخر، قصد ممارسة وظيفة الدمج وتحقيق التعايش في ظل هذه الازدواجية، لذلك يرى عمر أركان في الهوية الجزائرية انعكاسا مقلوبا لهوية الآخر، أي الاستعمار<sup>(18)</sup>.

والملاحظ لهذه الصور يجد توظيف عناصر الهوية الجزائرية ضد بعضها البعض، بحيث صار الجزائري

يبدو للجزائري في صورة الآخر، ناهيك عن الآخر الفعلي (العربي/الغربي).

ولعل هذا ما دفع آلان تورين إلى القول بأن «الذين يحسون أنفسهم مجتأحين بثقافة أو مصالح اقتصادية قادمة من الخارج، يتجمدون في الدفاع عن هوية منقولة يحسون أنهم يمتلكونها بدل أن يخلقونها، ولكن هذا التأكيد على الهوية مصطنع<sup>19</sup>».

إن تحديد الهوية في الصورة كخطاب معقد متشابك هو في آن معا مسألة فردية وجماعية، عدد من الـ "أنا" و/ أو الـ "نحن" الممكنة، فالأنا التي ترسم وتثير معان تختلف عن الأنا التي تصور، والتي توجه الأنظار إلى معنى معين وهكذا؛ فما يجب أن يفعله الفرد هو الانطلاق من نقاط القوة عنده، وبناء هويته بما يتلاءم مع موقعه المتخذ بشكل منسجم ومكتمل بشكل يصل به إلى الآخر.

karimhouguerra

الشباب الجزائري و السياسة..

دزّوا معاهم!



التعليم في الجزائر



رغم الحملة الإعلامية لتعبئة الشعب للانتخاب...

ضغ دارو الفوط لهاد أنهارات!!



رائي هذه الصور سيصله انطباع أن الجزائري كسول متخاذل حتى وهو يحلم بالمهن والقضايا المصيرية التي تتحكم بأرواح الناس، إذ يمكن بلوغها بالنوم والالتكال على الآخر القوي، وأنه يمتن بعض الأشغال الخاصة بلا رخصة في الشارع، وهي ظواهر لا يكاد ينعم منها مجتمع في العالم، وأنه شخص لا يبالي بقضايا مجتمعه متملص من كل مسؤولياته، فيندم هنا شرط التداول اللغوي؛ كون "الدفاع عن تقليد ثقافي بعيد جدا عن تأكيد الهوية لذا يتحدد إلا بالتعارض مع تهديد أجنبي وبالوفاء لتنظيم اجتماعي"<sup>20</sup>.

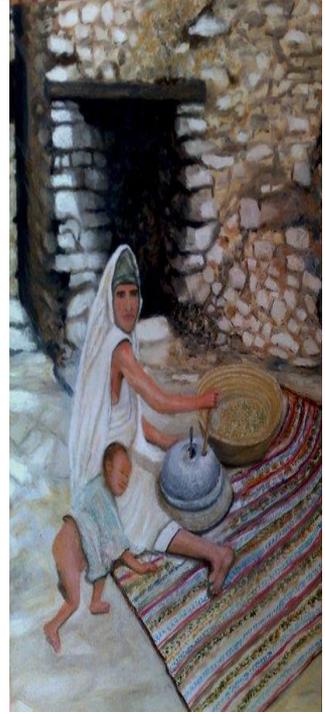
إن المعرفة الضرورية لإنجاز بعض الأفعال، والمواقف المهمة لتنظيم هذه الأفعال وتأويل الواقع الاجتماعي ستتشكل قبل المعرفة والمواقف، التي ليس لها بعد اجتماعي"<sup>(21)</sup>، كأفعال ترسيخ الهوية؛ فكل فئة مجتمعية مشاركة مجموعة محددة نسبيا من الأفعال اللغوية المحتملة،

بالنظر إلى مقام نمطي ، ويستحسن أن تكون أفعال الهوية منسجمة مع الفكر التأويلي الذي يكونه الشخص عن نفسه وعن علاقاته مع مجموعته الاجتماعية. إن السياق المعرفي للصورة عمل على تحديد ذاكرتها، واستراتيجياتها وغير ذلك من الأمور، التي تفهم منها، ويعاد إنتاجها من خلالها؛ ذلك أن الاستعداد المعرفي لمستقبلي الصورة: من رأي ومصالحة ومهام و رغبات وغير ذلك من مكوناته المعرفية الثقافية، يمارس تأثيرا نافذا في عملية فهم الصورة ومعالجتها، كون تحريك المعرفة والرأي والموقف والسلوك إزاء مثل هذا النوع من الخطابات يعمل على رسم هوية قد لا تكون حقيقية، إذا لم توضع في سياقاتها المحددة.

## 2- الهوية والصورة الضوئية:

الصورة وخاصة الصورة الضوئية ثقافة ونشاط أشمل يمارسه الفرد لإيصال فكرة عن هويته في سلوك وأسلوب ونمط شخصه المنتخبة؛ نعد كمتلق إلى تفكيك رموزها وتميزها وتفسيرها ونختار في ذلك ما يتفق مع ثقافتنا، والحاجات التي نريد إشباعها. كما يعمد الآخر إلى تكييف رموزها مع حاجاته، ومع ما يتفق من معتقداته.





تظهر هذه الصور هوية موروثه لا علاقة لها بالهوية المكتبة أو المرجوة ولا حتى المتحققة فعلا، لأن من يأتي إلى الجزائر فسيجد المظاهر التي تغعلها هذه الصور هي مظاهر ينذر وجودها في المجتمع الجزائري، لأنها تعبر فقط عن الموروث لا تطور فيها ولا تطوير، فلقد أنتجت النخبة المثقفة تنظيرا خاصا ضيقا في قضايا الهوية الجزائرية لتكوينها الثقافي المتميز عامة عن ثقافة الشعب أي أنها أنتجت تصورات على مقاسها الخاص في مجال الهوية<sup>(22)</sup>، ما يسمى الهوية النخبوية، وهي ضيقة تفرز تهميشا وإقصاء وتوترا في الأنا الجماعية؛ كونها لم تعتبر الشعب في يوم من الأيام مصدرا لتنظيراتها عن الهوية، الأمر الذي جعل البعض يعتقد أن الشعب الجزائري لا يملك هوية اجتماعية مشتركة، بل هويات متعددة (تبرز في مطالبة الجزائري بأن يعترف بالجزائري كآخر، فهل يعقل هذا؟! ومنه: من هو الجزائري إذن؟).

"إن الثقافة تؤدي وظيفة حيوية في تشكيل السلوك البشري.. وأنها تتحكم في الأنماط السلوكية المنبثقة عن الشخصية"<sup>(23)</sup> وهي الخلفية الفكرية والمعرفية والاعتقادية للسلوك.

وعلى حدّ تعبير صلاح فضل: "نسمي ثقافة تلك العناصر التي ترقى من مستوى القوة إلى مستوى الفعل، من الكمون إلى الظهور، أي تلك التي تمارس فعاليتها في السلوك، وتطبع

تصرفاتنا بطابعها وتتحكم في كيفية رؤيتنا للظواهر وشعورنا بها، تلك التي توجه مواقفنا وتؤلف المزيج الخاص للموظف لتكوين نظرتنا للكون والحياة<sup>24</sup>.

تلك هي العناصر التي من المفروض أن يتولى المبدعون بلورتها وتجسيدها في أسمى أشكالها وأقواها تعبيراً عن ضمير الجماعة/ عن الهوية الجماعية، ولكن قد تسلك هذه العملية أحد السبيلين<sup>25</sup>:

1- أن نتمدد إلى تكريس منظومة القيم القارة، وتأكيد آليتها، وضرورة الاستجابة النمطية لها في حالة قصور عن التكيف مع المعطيات الجديدة، والتطور والتجدد والتحصن، وهذا تصور غالبا ما يرضي أصحاب السلطة السياسية والإيديولوجية المسيطرة، كونه لا يمثل خطراً عليهم، إنه تصور مشوه فاقد للطابع الثقافي الصافي.

2- أن يعمد الإبداع إلى أداء وظيفته في البلورة الحقيقية للوعي الجماعي في تطلعاته وأشواقه ومشروعاته المستقبلية البناءة، فيعيد ترتيب العناصر الفاعلة في اللوحة الآنية كي تنتج غدا أفضل، لا ذلك الغد المستنسخ من اليوم؛ أي هوية حقيقية للجماعة تكون قد تخلصت من شوائب الهوية النخبوية المشوهة اللاحققية، وغير طائفة لمنطق الهوية الأصل.

العامل الثقافي عنصر أساس في تحديد الهوية الاجتماعية والوطنية، واللغة أهم عنصر من عناصر الثقافة و"الثقافة هي اللغة"، فثقافة أي مجتمع مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنمط اللغة والأسلوب المتبع فيها.

علينا أن نتصور الثقافة في لحظة ممارسة التراث الكامن لتأثيره على الوعي من خلال الفعل المحدد؛ ذلك أن الثقافة هي ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والمعتقدات، والفنون، والقانون، والأخلاق، والعادات والعرف، وكافة المقدرات والأشياء الأخرى التي تؤدي من جانب الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع<sup>(26)</sup>؛ فهي فعل اجتماعي يقوم به الإنسان ويشمل كل نشاط يقوم به، أو يتأثر به من خلال احتكاكه بالمجتمع وتواصله معه.

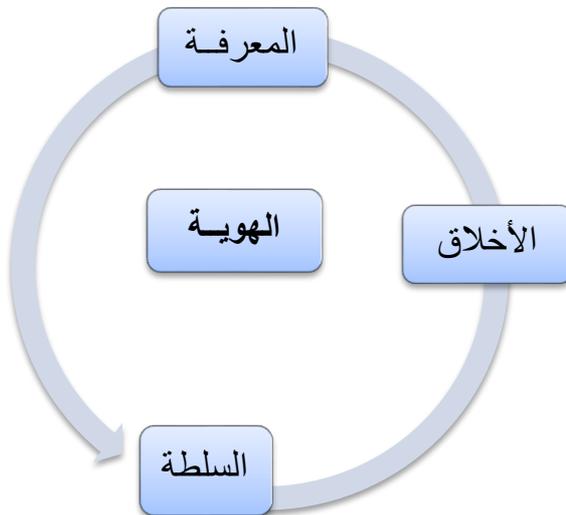
يقول شيالديني «إننا جميعاً نخضع أنفسنا من وقت لآخر حتى تظل أفكارنا ومعتقداتنا مطردة مع ما سبق أن فعلناه أو قررناه»<sup>(27)</sup>؛ فالوعي النقدي بالحياة عنصر أساس من عناصر الهوية بل هو الموجه لحركتها، والفاعل في تكوين بنيويتها، وتغيبه هو تغييب للهوية الأصل؛ ذلك أن

" الوسيلة الوحيدة للعلم بظاهرة ما، والسيطرة عليها هي رؤيتها في تولّدها وتحركها، واختيار إمكانات التدخل في مسارها"<sup>(28)</sup>.

ويقول أيضا « إن ضغوط الاطراد تعتصر الصورة عن الذات من الجانبين، فيكون هناك ضغط من الداخل لجعل الصورة عن الذات مسايرة للفعل، ويكون هناك ضغط أبحث من الخارج، وهو النزعة لتكثيف هذه الصورة تبعا للطريقة التي يدركنا بها الآخرون، ولما كان الآخرون يروننا على أننا نعتقد فيما قد كتبناه (حتى ولو كان بسيطا) فإننا سنعاني مرة ثانية من جذب حتى تساير صورتنا الإقرار المكتوب»<sup>(29)</sup>.

والحقيقية أن الصورة تظهر الهويتان من حيث لا ندري، ذلك أن تحديد الهوية من خلالها ليس مجرد سيرورة خطابية، ولا مسألة تشكيلية (يقونية/لغوية) ليتحقق الرأي القائل أن هوية الذوات هي نتيجة خطاب، بل هي مشيّد في الخطاب؛ باعتبار هذا الأخير مكونا ثقافيا متغيرا من مكونات التفاعل الاجتماعي، فإنه يمثل في حد ذاته ظاهرة ثقافية يمكن أن تستخرج منها بعض الخلاصات التي تهم البنية الاجتماعية للمجموعات الثقافية"<sup>(30)</sup>.

لتدخل الذات في صراع مستمر؛ في البحث عن سيرورات تحدد هويتها، وبخاصة في تشكيل "الوعي الذاتي"، فعلى هذه الذات أن تعي حقيقتها، قدرتها، موقعها؛ فهوية الشخص هي في نهاية الأمر هوية للمجتمع بأكمله. تخضع الصورة من حيث منطق السيطرة على الهوية بمختلف أنواعها إلى علاقات معينة (بين ذوات المجتمع):



لنتساءل: كيف نتشكل كمواضيع لمعرفةنا؟ كيف نكون ذواتنا أخلاقية تتبع من أفعالنا وممارساتنا؟ أي كيف نكون ذواتنا أخلاقية تعرف وتخضع لعلاقات سلطوية فيما بينها؟ لتظهر الصور استعداد الذوات المجسمة والذوات المشاركة لرؤية الأمور والتعرف بطرق معينة استنادا إلى انخراطهم في المجتمع وتجربتهم، وانخراط الذوات الأخرى في سبيل تحديد الهوية، ورسم معالمها، خاصة وأنها ذوات دخلت في علاقات سلطوية بعضها ببعض.





إن الصورة الضوئية باتت تعادل قوة الكلمة وسلطانها، في الترويج للهوية: وعليه نتساءل هل تصور لنا الهوية أم أنها تسلب منها الروح، وتمنحها المعنى المضاد، على الرغم من أنها أهم وسائل الإيضاح، والعنصر الأساس في استجلاء عمق الظاهرة، إذ يجد الرائي معاني كثيرة في كل هذه الصور، تسهم جميعها في تحديد الهوية بنوعها: الشخصية والاجتماعية. وهو الأمر الواضح في الصورة الأولى أين نجد الهوية الموروثة تسيطر على الهوية الراهنة المكتسبة منها والمرجوة، في حين كان على راسم اللوحة تطويرها وتقديمها بشكل يقربها للمشاهد، وذات الأمر نجده في الصورة الثانية والتي يظهر فيها الجزائري شخصا حافيا برفقة حمار وهي صورة في اعتقادنا بعيدة جدا عما هو موجود، وزائر الجزائر سيدرك ذلك حالما يحل ضيفا سائحا عليها، وفي الصورة الثالثة يجد رائي الصورة "الجزائر" ممثلة في علمها تحمل معاني الظلام والعتمة والاختباء واللا.وضوح؛ فإمكانية وصف سيرورة تقود بين أبسط الأشكال

الوجودية للقيم وأكثرها تجريدية إلى مستويات تتميز ببعد تشخيصي مرئي و متحقق في فعل إنساني مدرج ضمن وضعيات تستوعب هذه القيم وتمنحها وجودا مخصوصا ولقد أطلق على هذه السيرورة المسار التوليدي وهذا المسار دال في الوقت ذاته على ترتيب خطي موجه نحو غاية، ويتحقق من خلال خطاطة سردية وعلى دينامية داخلية تحدد النص (الواقعة) باعتبار تفاعل مستوياته لا باعتبار المضامين الدلالية التي يحملها؛ فالبنىات الأولية لا تتحدد من حيث وجهها الحقيقي إلا من خلال تجسدها<sup>31</sup> (32).

إذن، تنطوي سيرورة تحديد الهوية على نتائج مرتبطة بتشكيل الصورة كخطاب، إذ يجب اعتبارها سيرورة منطقية جدلية يتم من خلالها ترسيخ ضروب خطاب الهوية؛ لأن "الإنسان لا يملك هويته الإنسانية إلا إذا أحس بالمساواة مع غيره المختلف عنه بدوره"<sup>(33)</sup>.

كما أن الصور المنتقاة قد شكلت مرجعيات مختلفة للهوية الجزائرية المشوهة، على الرغم من أنها كانت من الواجب عليها الخروج من "فكر نقدي" يعمل على تفكيك التراث، وتحريك الراهن فيها؛ إذ كان على الصور الاندماج في الحلم أو المشروع الحي كما يعيشه الناس الخاصة والعامة، لا فقط كما تعيشه الخاصة. كما كان يجب التأصيل الفكري داخل واقع الصورة لينبع من باطنه وتزول عنه تهم الدخيل والاستلاب.

وأخيرا، إذا أردنا تأسيس هوية جزائرية حية بدل الهوية النخبوية



الصورية، التي تشيها بعض الإبداعات الجزائرية المعاصرة النخبوية، وجب استخلاصها من واقع الجماعة بما تشكله كلمة جماعة من مرجع ومفهوم، لأن المفكرين والمبدعين درجات وأمزجة، ولا يجب ترك الهوية رهينة الهوى والمزاج والطبقية؛ فالهوية التي تولد في قفص الصورة ستعتقد دوما أن الطيران جريمة؟. الإحالات:

- (1) عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة (تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1999، ص95.
- (2) جمال شحيد ووليد قصاب، خطاب الحداثة في الأدب - الأصول والمرجعيات، دار الفكر، سوريا، ط1، 2005، ص429.
- (3) جمال شحيد ووليد قصاب، خطاب الحداثة، ص429.
- (4) محمد محمود شاويش، نحو ثقافة تأصيلية (البيان التأصيلي)، الدار العربية للعلوم، بيروت،، نينوي للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، ط2007، ص1، ص32.
- (5) محمد حسن البرغثي، الثقافة العربية والعولمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2007، ص115.
- (6) محمد شاويش، نفسه، ص35.
- (7) - الميلودي شغوم، المتخيل الهوية (الكرامات أنموذجا)، مجلة بصمات، جامعة الحسن الثاني المحمدية، دار البيضاء، ع4، 1990، ص25.
- (8) - نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب (التحليل النصي للخطاب الاجتماعي)، ترجمة طلال وهبة، مراجعة نجوى نصر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، ديسمبر 2009، ص297.
- (9) ينظر: محمد البرغثي، نفسه، ص116.
- (10) - رشدي أحمد طعيمة/محمود كامل الناقبة، اللغة العربية والتفاهم العالمي -المبادئ والآليات، دار المسيرة، الأردن، ط2009، ص1، ص59.
- (11) -ابراهيم سعدي، صورة الأنا والآخر في المجتمع الجزائري، مجلة السين، العدد 15، 2000، ص106.
- (12) غريماس و فونتاني، نفسه، ص116.
- (13) نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب، ص298.
- (14) -فاركلوف، نفسه، ص298.
- (15) -يصفها الدكتور ابراهيم سعدي بالأنا الدنيا.
- (16) - آلان تورين، نقد الحداثة، ترجمة عبد السلام الطويل، مراجعة محمد سبيلا، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2010، ص307.

- (17) - غريماس وفونتاني، نفسه، ص 149.
- (18) - إبراهيم سعدي، صورة الأنا والآخر، ص 108.
- (19) - آلان تورين، نفسه، ص 304.
- (20) - آلان تورين، نفسه، ص 304.
- (21) - فان ديك وآخرون، نظرية الأدب في القرن العشرين - مقال: النص: بنياته ووظائفه (مدخل أولي إلى علم النص)، ترجمة: محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1996، ص 73.
- (22) - إبراهيم سعدي، نفسه، ص 110.
- (23) - عامر مصباح، الإقناع الاجتماعي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2006، ص 52.
- (24) - صلاح فضل، صور القراءة وأشكال التخيل، دار الكتاب المصري، اللبناني، القاهرة، بيروت، ط1، 2007، ص 345.
- (25) - بنظر: صلاح فضل، المرجع نفسه، ص 345-346.
- (26) - حسين عبد الحميد رشوان: الثقافة، دراسة في علم الاجتماع، مؤسسة الشباب، الإسكندرية، 2006، ص 05.
- (27) - روبرت شيالديني: التأثير، وقائع الإقناع، ترجمة: سعد جلال، دار الفكر، القاهرة، 1988، ص 244.
- (28) - بنظر: صلاح فضل، المرجع نفسه، ص 345-346.
- (29) - شالديني، نفسه، ص 87.
- (30) - فان ديك وآخرون، نفسه، ص 76.
- (31) - غريماس وفونتاني، المرجع نفسه، ص 25.
- (32) - الميلودي شغوم، المتخيل الهوية، ص 27.